

قصة مكة

أحمد بن صالح بن إبراهيم الطويان

الموقع الرسمي للشيخ أحمد الطويان
www.attwayan.com

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام
على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى
آله وصحبه أجمعين .. وبعد:

فمحبة مكة المكرمة تسري في عروق
المؤمن يجبها بحب الله لها، وحين يقف المسلم
متأملاً في تلك الرحاب الطاهرة يجد فيها
الأنس والسعادة والطمأنينة والسكينة فتلك
البقاع المشرفة فيها البركة والخير لا يمل المسلم
من العيش في رحابها والتقلب في أرجائها.
وفي فترة من الفترات وقفت متأملاً تلك
الكعبة الشريفة وتلك الوفود المتدفقة والجموع
المتكاثرة فتسألت، أي بقعة في الأرض أعظم
جمالاً وبهاءً وسكينة من تلك البقعة المباركة.
تلك البقعة التي تزيد قلب المؤمن انشراحاً
وسروراً فما جلس فيها مهموم إلا سُري عنه
ما يجد من هموم الدنيا.
وما دعى فيها داع إلا أُستجيب له،
وما استغفر فيها مستغفر إلا غفر له ففيها
تكسب العبرات وتترل الرحمات وتكفر

السيئات وترفع فيها الدرجات، ويزاد في الحسنات.

وصدق الله ﴿ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلْبَدَّ ذَلِكُمْ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

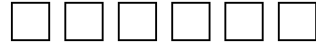
ألا ما أعظم المكان وما أجل البقعة .. بقاع شرفها رب العالمين ونزل فيها وحي السماء وتردد في أطرافها وأرجائها النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه .. فيها نشأ وترعرع وعاش ودرج ومنها أُسري به وعُرج .. فيها عاش الصحب الكرام ترددوا في آثارها وارتبوا من بركاتها، إليها يأتي الناس من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات، فلهذه البقعة قصة عميقة الجذور منذ أن خلق الله السماوات والأرض قصة ليست كالقصاص وهي مدرسة يتخرج فيها قاصدوها ليسيروا على طريق الهداية إلى الممات.

فاللهم اقبل عملي واجعله خالصاً

لوجهك الكريم وانفعني به يوم لا ينفع مال ولا
بنون، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى
آله وصحبه وسلم.

وكتبه

أحمد بن صالح بن إبراهيم الطويان



أم القرى

مكة بلد الله الأمين، اختارها من بين البقاع وجعلها مناسك لعباده وأوجب عليهم الإتيان إليها من القرب والبعد من كل فج عميق جعلها الله حرماً آمناً لا يسفك فيها دم ولا تعضد بها شجرة ولا ينفر صيدها ولا يُختلى خلالها.

أقسم الله بها في كتابه: **ا وَهَذَا أَلْبَدِ الْأَمِينِ** . وقال تعالى: **ا لَا أُقْسِمُ بِهَذَا أَلْبَدِ** ﴿

هي المسجد الحرام والبيت العتيق، والحج إليها مكفرٌ للذنوب ومباحٌ للأوزار وحاطٌ للخطايا والسيئات ولم يرض الله لقاصدها من الثواب دون الجنة «وليس للحجة المبرورة جزاء إلا الجنة» رواه أهل السنن. وفي الصحيحين «العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة».

لا يدخلها قاصد الحج والعمرة إلا محرماً متواضعاً متخشعاً متذللاً متجرداً عن الدنيا مقبلاً على الآخرة، هي أحب البقاع إلى الله

وخير أرض الله، قال صلى الله عليه وسلم مخاطبها يوم الهجرة: «والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إلى الله ولولا أني أُخرجت منك ما خرجت ..». [رواه أحمد والترمذي]

يجبها الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وتنجذب إليها قلوب المؤمنين الصادقين، قال صلى الله عليه وسلم: «اللهم حبب إلينا المدينة كما حبيت إلينا مكة» [رواه مسلم].

فإليها لا غيرها تهوى القلوب وتنعطف النفوس، وتشتاق قلوب أهل الإيمان .. لا يرجعُ الطرف عنها حين ينظرها

حتى يعود إليها
الطرفُ مشتاقاً

تنجذب إليها القلوب اشتياقاً ومحبة وإجلالاً وتعظيماً مع وعورة طريقها وتعب سفرها وليس فيها ما تشتهيهِ النفوس من الحضرة والجمال الدنيوي؛ إلا أن جمال البهاء والعظمة والعز والشرف يأسر ألباب أولي النهي فله كم لها من محب، وكم أنفق في حبها من

الأموال وهجرت عند قصدها الأوطان..
فهي أم القرى فليس لها في القرى عديل
ومثيل.

وهي قبلة المسلمين، فيها أول بيت وضع
للناس إِنْ أَوْلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ
مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ .

فهو مثابة للناس وآمناً وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ
مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى
﴿١٧﴾ . فإليه يثوبون ويرجعون ويشتاقون
ويقصدون.

إِ فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ
كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ
إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴿١٨﴾ .

مواطنها عمرت بالوحي والتزير وتردد
فيها الرسول النبي الأمين وعلى ثراها تقلب
النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه.

فيها تردد الملائكة والروح وضجت
عرصاتها بالتقديس والتسبيح والتهليل منها
انبثقت النبوة وشع نور الرسالة وفيها الشعائر
والمناسك ومشاعر المسلمين ومواقف سيد

المرسلين، فهي مهد الهداية البلد الحرام زادها
الله شرفاً وتعظيماً ومهابة وبرا، وزاد من حج
البيت أو اعتمر مهابة وبرا وإحساناً (١) .

قال تعالى: **اَوْ مَنْ يُعَظِّمُ شَعْبَةَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ
تَقْوَى الْقُلُوبِ** ﴿الحج: ٣٢﴾ .



(١) انظر زاد المعاد ٤٦/١، وما بعدها، والصفدية لشيخ
الإسلام ٢٢٠/١، والشفاء للقاضي عياض ٦٢٢/٢ .

حنين وشوق

قال ابن القيم رحمه الله في قصيدته

الميمية:

أما والذي حج المحبون بيته
 ولَبَّوا له عند المَهَلِّ وأحرموا
 وقد كشفوا تلك الرؤوس تواضعاً
 لعزة مَنْ تَعَنُوا الوجوهُ وتُسَلِّمُ
 يُهلون بالبيداء لبيك ربنا
 لك الملك والحمدُ الذي أنت تعلمُ
 دَعَاهُمْ فَلَبَّوهُ رضاً ومحبةً
 فلما دعوه كان أقرب منهم
 تراهم على الأنضاء (١) شُعْنًا
 رؤوسُهُم
 وعُزْبًا وهم فيها أسرُّ وأنعمُ
 وقد فارقوا الأوطان والأهل رغبةً
 ولم يُننهم لدَائِهِم والتَّعَمُّ

(١) الأنضاء: المهزول من الإبل.

يسيرون من أقطارها وفجاجها
رجالاً ورُكباناً والله أسلموا
ولمّا رأتْ أبصارُهُمْ بَيْتَهُ الَّذِي
فُلُوبُ الْوَرَى شَوْقاً إِلَيْهِ تَضَرَّمُ
كَأَنَّهُمْ لَمْ يَنْصَبُوا قَطُّ قَبْلَهُ
لأن شقاهُمْ قد ترحل عَنْهُمْ
فله كم من عبرةٍ مُهراقةٍ
وأخرى على آثارها لا تَقْدَمُ
وقد شَرَقَتْ عَيْنُ الْمُحِبِّ بدمعها
فَيَنْظُرُ من بين الدُمُوعِ وَيُسْجَمُ
إذا عَايَنَتْهُ الْعَيْنُ زال ظلامُها
وزالَ عَنِ الْقَلْبِ الْكُنُيبُ التَّأَلُّمُ
ولا يَعْرِفُ الطَّرْفُ الْمُعَايِنُ حُسْنَهُ
إلى أن يَعُودَ الطَّرْفُ وَالشَّوْقُ أَعْظَمُ
ولا عَجَبٌ مِنْ ذَا فَحِينِ أَضَاقَهُ
إلى نَفْسِهِ الرَّحْمَنُ فَهُوَ الْمَعْظَمُ

كسَاهُ مِنَ الْإِجْلَالِ أَعْظَمَ حُلَّةٍ
 عَلَيْهَا طِرَازٌ بِالْمُلَاحَةِ مَعْلَمٌ
 فَمِنْ أَجْلِ ذَا كُلِّ الْقُلُوبِ نُحْبُهُ
 وَتَخَضَعُ إِجْلَالاً لَهُ وَتُعْظَمُ
 وَرَاحُوا إِلَى التَّعْرِيفِ (١) يَرْجُونَ
 رَحْمَةً

وَمَغْفِرَةً مِمَّنْ يَجُودُ وَيُكْرِمُ
 فَلَهُ ذَاكَ الْمَوْقِفُ الْأَعْظَمُ الَّذِي
 كَمَوْقِفِ يَوْمِ الْعَرْضِ بَلْ ذَاكَ
 أَعْظَمُ
 وَيَدْنُوا بِهِ الْجَبَّارُ جَلَّ جَلَالُهُ
 يُبَاهِي بِهِمْ أَمَلَاكُهُ فَهُوَ أَكْرَمُ
 يَقُولُ عِبَادِي قَدْ أَتَوْنِي مُحِبَّةً
 وَإِنِّي بِهِمْ بَرٌّ أَجُودُ وَأَرْحَمُ
 فَأَشْهَدُكُمْ أَنِّي غَفَرْتُ ذُنُوبَهُمْ
 وَأَعْطَيْتُهُمْ مَا أَمَلَوْهُ وَأَنْعَمُ

(١) التعريف: عرفة.

فبُشِرَاكُمْ يَا أَهْلَ ذَا الْمَوْقِفِ الَّذِي
 بِهِ يَغْفِرُ اللَّهُ الذُّنُوبَ وَيَرْحَمُ
 فَكُمْ مِنْ عَتِيقٍ فِيهِ كُمَلٌ عَثْقُهُ
 وَآخِرُ يَسْتَسْعِي وَرَبُّكَ أَرْحَمُ
 وَمَا رُؤِيَ الشَّيْطَانُ أُغِيظَ فِي الْوَرَى
 وَأَحْقَرَ مِنْهُ عِنْدَهَا وَهُوَ الْأُمُّ
 وَذَاكَ لِأَمْرٍ قَدْ رَأَهُ فَعَاظَهُ
 فَأَقْبَلَ يَحْتَوُوا التُّرْبَ غَيْظًا وَيَلْطَمُ
 لِمَا عَايَنَتْ عَيْنَاهُ مِنْ رَحْمَةٍ أَتَتْ
 وَمَغْفِرَةٍ مِنْ عِنْدِ ذِي الْعَرْشِ تُقَسَّمُ
 بَنَى مَا بَنَى حَتَّى إِذَا ظَنَّ أَنَّهُ
 تَمَكَّنَ مِنْ بُنْيَانِهِ فَهُوَ مُحَكَّمٌ
 أَتَى اللَّهُ بُنْيَانًا لَهُ مِنْ أَسَاسِهِ
 فَخَرَّ عَلَيْهِ سَاقِطًا يَنْهَدَمُ
 وَكَمْ قَدْرُ مَا يَعْلُو الْبِنَاءُ وَيَنْتَهِي
 إِذَا كَانَ يَبْنِيهِ وَذُو الْعَرْشِ يَهْدُمُ
 وَرَاحُوا إِلَى جَمْعٍ ^(١) فَبَاتُوا بِمَشْعَرِ
 الْ

حَرَامِ وَصَلُّوا الْفَجْرَ ثُمَّ تَقَدَّمُوا
 إِلَى الْجَمْرَةِ الْكُبْرَى يُرِيدُونَ رَمِيهَا
 لَوْقَتِ صَلَاةِ الْعِيدِ ثُمَّ تَيَمَّمُوا
 مَنَازِلَهُمْ لِلنَّحْرِ يَبِغُونَ فَضْلَهُ
 وَإِحْيَاءِ نُسُكِهِمْ مِنْ أَبِيهِمْ يُعْظَمُ
 فَلَوْ كَانَ يُرْضِي اللَّهُ نَحْرُ نَفْسِهِمْ
 لَدَانُوا بِهِ طَوْعًا وَلِلْأَمْرِ سَلَمُوا

(١) جمع: مزدلفة.

كما بذلوا عند الجهاد نُحورَهُمْ
لأعدائه حتى جرى مِنْهُمُ الدَّمُ
ولكنهم دائُوا بوضع رؤوسهم
وذلك ذُلٌّ للعبيدِ ومَيْسَمٌ
ولما تَقَضُّوا ذلك التَّقَاتِ الذي
عليهم وأَوْفُوا نَدْرَهُمْ ثُمَّ تَمَّمُوا

دعاهم على البيت العتيق زيارةً
 فيها مرحباً بالزَّيرينَ وأكرم
 فله ما أبهى زيارتهم له
 وقد حُصِّلتْ تلك الجوائزُ نُقسَمُ
 والله أفضلُ هُنَاكَ ونِعْمَةٌ
 وبرٌّ وإحسانٌ وجودٌ ومرحَمٌ
 وعادُوا إلى تلك المنازلِ مِن منى
 ونالوا منها مَنَاهِمَ عِنْدَهَا وتَنَعَّمُوا
 أقامُوا بِهَا يوماً ويوماً وثالثاً
 وأدْنُ فِيهِمُ بِالرَّحِيلِ وأَعْلَمُوا
 وَرَاحُوا إلى رَمِي الجِمَارِ عَشِيَّةً
 شِعَارُهُم التَّكْبِيرُ واللهُ مَعَهُمْ
 فلو أَبصَرْتَ عَيْنَاكَ مَوقِفَهُم بِهَا
 وقد بسطوا تلك الأَكْفَ لِيُرْحَمُوا
 يُنَادُونَهُ يَا رَبُّ يَا رَبُّ إِنَّا
 عَيْبِدُكَ لَا نَدْعُوا سِوَاكَ وَتَعْلَمُ
 وَهَانِحُنْ نَرَجُو مِنكَ مَا أَنْتَ أَهْلُهُ
 فَأَنْتَ الَّذِي تُعْطِي الْجَزِيلَ وَتُنْعِمُ
 وَلَمَّا تَقَضَّوْا مِن منى كُلَّ حَاجَةٍ
 وَسَالَتْ بِهِمُ تِلْكَ الْبَطَاحُ تَقَدَّمُوا
 إِلَى الكَعْبَةِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ عَشِيَّةً
 وَطَافُوا بِهَا سَبْعاً وَصَلُّوا وَسَلَّمُوا
 وَلَمَّا دَنَا التَّوْدِيْعُ مِنْهُمْ وَأَيَقُنُوا
 بِأَنَّ التَّدَانِي حَبْلُهُ مُتَّصِرٌ
 وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا وَفَقَةٌ لِمَوَدِّعٍ
 فَاللهُ أَجْفَانٌ هُنَاكَ تُسَجِّمُ
 واللهُ أَكْبَادٌ هُنَاكَ أُوْدِعَ الْ

غَرَامَ بِهَا فَالْتَارُ فِيهَا تَضَرَّمُ
 وَاللهُ أَنْفَاسٌ يَكَادُ بِحَرِّهَا
 يَدُوبُ الْمُحِبُّ الْمُسْتَهَامُ الْمَتِيمُ
 فَلَمْ تَرَ إِلَّا بَاهِتًا مُتَحِيرًا
 وَأَخْرَ يُبْدِي شَجْوَهُ يَتَرَّمُ
 رَحَلْتُ وَأَشْوَاقِي إِلَيْكُمْ مُؤَيَّمَةٌ
 وَنَارُ الْأَسَى مِنِّي تَشِيبُ وَتَضَرَّمُ
 أَوْدَعُكُمْ وَالشُّوقُ يُثْنِي أَعْتَتِي
 وَقَلْبِي أَمْسَى فِي حِمَاكُمْ مُخَيَّمُ
 هُنَالِكَ لَا تَتْرِبَ يَوْمًا عَلَى امْرئٍ
 إِذَا مَا بَدَا مِنْهُ الَّذِي كَانَ يَكْتُمُ
 فَيَا سَائِقِينَ الْعَيْسَ بِاللَّهِ رَبِّكُمْ
 قَفُّوا لِي عَلَى تِلْكَ الرَّبُوعِ وَسَلِّمُوا



اَوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ ﴿٣٧﴾

جاء إبراهيم بهاجر وبانها إسماعيل وهي
 تُرضعه حتى وضعها عند البيت عند دوحه فوق
 زمزم في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد
 وليس بها ماء، فوضعها هنالك ووضع عندهما
 جراباً فيه تمرٌ وسقاءً فيه ماءً، ثم قفى إبراهيم
 منطلقاً، فتبعته أم إسماعيل فقالت: يا إبراهيم
 أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه
 إنس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مراراً وجعل
 لا يلتفت إليها فقالت له: الله الذي أمرك
 بهذا؟ قال: نعم قالت: إذن لا يضيعنا. ثم
 رجعت فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية
 حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ثم دعا
 بهؤلاء الكلمات ورفع يديه فقال: اِرْتَبْنَا اِنِّي
 اَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ
 اَلْمُحَرَّمِ - حتى بلغ - يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ [إبراهيم: ٣٧].
 وجعلت أم إسماعيل تُرضع إسماعيل وتشرب من
 ذلك الماء حتى إذا نفذ ما في السقاء عطشت

وعطش ابنها وجعلت تنظرُ إليه يتلوى فانطلقت كراهية أن تنظرُ إليه فوجدتُ الصفا، أقربَ جبلٍ في الأرض يليها، فقامت عليه ثم استقبلت الوادي تنظرُ هل ترى أحداً، فهبطتُ من الصفا حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها ثم سعتُ سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي ثم أتت المروة فقامت عليها ونظرت هل ترى أحداً فلم تر أحداً ففعلت ذلك سبع مرات.

قال ابن عباس قال: النبي صلى الله عليه وسلم : «فذلك سعي الناس بينهما». فلماً أشرفتُ على المروة سمعتُ صوتاً فقالت: صه. تُريدُ نفسها ثم تسمعتُ فسمعتُ أيضاً، فقالت: قد أسمعتَ إن كان عندك غواثٌ، فإذا هي بالملك عند موضع زمزم، فبحث بعقبه - أو قال: بجناحه - حتى ظهر الماء فجعلت تُحوّضهُ وتقولُ بيدها هكذا، وجعلتُ تُعرفُ من الماء في سقائها وهو يَفورُ بَعْدَ ما تغرف. قال ابن عباس: قال النبي صلى الله عليه وسلم : «يرحمُ

الله أم إسماعيل لو تركت زمزم». أو قال: «لو لم تعرف من الماء لكنت زمزم عينا معينا» قال: فشربت وأرضعت ولدها فقال لها الملك: لا تخافوا الضيعة فإن ههنا بيت الله بينه هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يضيع أهله. وكان البيت مرتفعا من الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله، فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم - أو أهل بيت من جرهم - مقبلين من طريق كداء فترلوا في أسفل مكة فرأوا طائرا عائفا فقالوا: إن هذا الطائر ليدور على ماء لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء، فأرسلوا جريا - أو جريين - فإذا هم بالماء، فرجعوا فأخبروهم بالماء فأقبلوا. قال: وأم إسماعيل عند الماء، فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ فقالت: نعم ولكن لا حق لكم في الماء. قالوا: نعم.

قال ابن عباس: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «فألفى ذلك أم إسماعيل وهي تحب الإنس»، فترلوا وأرسلوا إلى أهلهم فترلوا معهم حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم وشب الغلام وتعلم العربية منهم، وأنفسهم وأعجبهم

حين شَبَّ، فلما أدرك زَوْجُوهُ امرأةً منهم. وماتت أم إسماعيل فجاء إبراهيم بعد ما تزوج إسماعيل يُطالع تَرَكَتَهُ فلم يجد إسماعيل، فسأل امرأته عنه فقالت: خرج بيتغي لنا ثم سألتها عن عيشهم وهيئتهم، فقالت: نحن بشر نحن في ضيق وشدة فشكت إليه، قال: فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام وقولي له يُغَيِّرُ عتبه بابه، فلما جاء إسماعيل كأنه آنس شيئاً، فقال: هل جاءكم من أحد؟ قالت: نعم جاءنا شيخ كذا وكذا، فسألنا عنك فأخبرته وسألني كيف عيشنا فأخبرتهم أنا في جهد وشدة. قال: فهل أوصاك بشيء؟ قالت نعم! أمرني أن أقرأ عليك السلام ويقول: غير عتبه بابك. قال: ذاك أبي وقد أمرني أن أفارقك، الحقي بأهلك. فطلقها وتزوج منهم أخرى، فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله ثم أتاهم بعد فلم يجده، فدخل على امرأته فسألها عنه فقالت: خرج بيتغي لنا. قال: كيف أنتم؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم. فقالت: نحن بخير وسعة، وأثنت على الله. قال: ما طعامكم؟ قالت: اللحم. قال: فما شرابكم؟ قالت: الماء. قال: اللهم بارك لهم في

اللحم والماء. قال النبي صلى الله عليه وسلم :
«ولم يكن لهم يومئذ حَبٌّ ولو كان لهم دعا
لهم فيه» قال: «فَهُمَا لا يَخْلُو عليهما أحدٌ بغير
مكة إلا لم يُوافقاه».

قال: فإذا جاء زوجك فاقترني عليه
السلام ومُريه يُثَبِّت عَتَبَةَ بابه، فلما جاء
إسماعيل قال: هل أتاكم من أحد؟ قالت: نعم!
أتانا شيخ حسن الهيئة وأثنت عليه، فسألني
عنك فأخبرته فسألني كيف عيشنا فأخبرته أنا
بخير، قال: فأوصاك بشيء؟ قالت: نعم هو يقرأ
عليك السلام ويأمرُك أن تُثَبِّتَ عَتَبَةَ بابك.
قال: ذاك أبي وأنت العَتَبَةُ، أمرني أن أُمسِكَ.
ثم لبث عنهم ما شاء الله ثم جاء بعد ذلك
وإسماعيل يبُري له نَبلاً تحت دوحَةٍ قريباً من
زمزم، فلما رآه قام إليه فصنعا كما يصنع
الوالد بالولد والولد بالوالد، ثم قال: يا إسماعيل
إن الله أمرني بأمر قال: فاصنع ما أمرك ربك.
قال: وتُعِينني؟ قال: وأُعِينك. قال: فإن الله
أمرني أن أبني ههنا بيتاً. وأشار إلى أكمةٍ
مرتفعةٍ على ما حولها. قال: فعند ذلك رَفَعَا
القواعدَ من البيت فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة

خصائص مكة (البيت الحرام)

لم تكن مكة منذ أن خلق الله السماوات والأرض إلا بلداً حراماً وحرماً آمناً بأمان الله لها. فهي البلد الحرام والبيت الأمين.

فمن خصائص هذه البلدة:

١- تحريم الله لها منذ أن خلق الله السماوات والأرض قال صلى الله عليه وسلم: «إن مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دماً ولا يعضد بها شجرة.. الحديث»

[رواه البخاري ومسلم].

وفي الحديث الآخر «إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السماوات والأرض فهو حرام بجرمة الله إلى يوم القيامة وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي ولم يحل لي إلا ساعة من نهار فهو حرام بجرمة الله إلى يوم القيامة لا يعضد شوكة ولا ينفر صيده ولا يتلقت لقطته إلا من عرفها ولا يختلى خلاها.. الحديث»

[رواه البخاري ومسلم].

٢- ومن خصائصها كونها قبلة لأهل الأرض كلهم فليس على وجه الأرض قبلة

غيرها، قال تعالى: **ا وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ** ﴿البقرة: ١٤٩﴾ .

٣- ومن خصائصها تحريم استقبالها واستدبارها عند قضاء الحاجة دون سائر بقاع الأرض، قال صلى الله عليه وسلم: **«إِذَا جَلَسَ أَحَدُكُمْ عَلَى حَاجَتِهِ فَلَا يَسْتَقْبِلُ الْقِبْلَةَ وَلَا يَسْتَدْبِرُهَا»** [رواه مسلم].

٤- ومن خصائصها تعظيم السيئة فيها، والهمّ بالسيئة بمكة يكتب دون سائر البقاع، قال تعالى:

ا وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نُدِقَهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿الحج: ٢٥﴾ .

٥- ومن خصائصها مضاعفة الحسنات، والصلوات، فالصلاة في المسجد الحرام عن مائة ألف صلاة فيما سواه قال صلى الله عليه وسلم: **«صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام، وصلاة في المسجد الحرام أفضل من صلاة في مسجدي هذا بمئة صلاة»** [رواه النسائي وابن حبان وسنده صحيح].

وهو يشمل جميع نواحي الحرم ولا يختص

بالمسجد فقط.

٦- ومن خصائصها وجوب الحج والعمرة إليها. قال تعالى: **اِنَّ لِلّٰهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ اِلَيْهِ سَبِيْلًا** ﴿آل عمران: ٩٧﴾ .
 ليس على وجه الأرض بقعة يجب على كل قادر السعي إليها والطواف بالبيت الذي فيها غيرها وليس على وجه الأرض موضع يشرع تقبيلة واستلامه وتحط الخطايا والأوزار فيه غير الحجر الأسود والركن اليماني (١) .



مكة والأنبياء

حج إلى مكة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فقد حج البيت آدم عليه السلام، وقيل أن الماء لم يعلو البيت حين الطوفان. وفي الحديث: «لقد مرّ بالصخرة من الروحاء سبعون نبياً منهم نبي الله موسى عليه السلام حفاة عليهم العباء يؤمون بيت الله العتيق» [رواه أحمد وأبو يعلى وحسنه الألباني].

وقال صلى الله عليه وسلم: «صلى في مسجد الخيف سبعون نبياً منهم: موسى عليه السلام كأني أنظر إليه وعليه عباءتان قطوانيتان وهو محرم على بعير من إبل شنؤه مخطوم بخطام ليف له ضفيرتان» [رواه الطبراني وحسنه الألباني].

وفي الحديث: «لقد مرّ به (أي وادي عسفان) هود وصالح على بكرات خطمهما الليف أزرهم العباء وأرديتهم النمار يحجون البيت العتيق» [رواه أحمد].

وروى الحاكم أنه صلى الله عليه وسلم لما

مرَّ بوادي الأزرق قال: «كأني أنظر إلى موسى عليه السلام مُهبطاً له جوار إلى الله بالتكبير ثم أتى على ثنية فقال كأني انظر إلى يونس عليه السلام على ناقة حمراء جعدةٍ خطامها ليف وهو يلي وعليه جبة صوف» [صححه الألباني].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «ليهلن ابن مريم بفتح الروحاء حاجاً أو معتمراً أو ليشنيهما» [رواه مسلم].

وإبراهيم عليه السلام بنى البيت وابنه إسماعيل وأذن بالناس بالحج ودعى لمكة، قال تعالى: **وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** ﴿البقرة: ١٢٧﴾ .

وقال تعالى: **وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ فَوَاقِنَّا مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ** ﴿البقرة: ١٢٦﴾ .

وقال تعالى: **ارَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا**

أَلصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ
وَأَرْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾

. [إبراهيم: ٣٧]



مكة في الجاهلية

كانت العرب على دين إبراهيم عليه السلام حتى جاء عمرو بن لحي الخزاعي فغير دين إبراهيم وأتى بالأصنام إلى مكة ونصبها حول الكعبة ودعى العرب لعبادتها فأطاعوه، وكان فيهم بقايا من دين إبراهيم يتمسكون بها من تعظيم البيت والطواف به والحج والعمرة والوقوف بعرفة ومزدلفة وإهداء البدن والإهلال بالحج والعمرة مع إدخالهم في التلبية ما ليس منها كقولهم (إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك)، وكان لقريش أصنام في جوف الكعبة وحولها وكان عددها ثلاثمائة وستون صنماً وأعظمها عندهم هُبل وكان لهم إساف ونائلة على الصفا والمروة.

وحفر عبدالمطلب جد النبي صلى الله عليه وسلم زمزم وقد دفنت من قبل وجعلها سقاية للناس.

وكانوا يعبدون الأحجار ويقتلون البنات ويشربون الخمر، واتخذوا البحيرة والسائبة والحام، وابتدعوا بدعة فتركوا الوقوف بعرفة

وكانت العرب تقف بعرفة إلا أهل مكة، وقالوا لا ينبغي للحمس (وهم أهل مكة) أن يقطوا الأقط ولا يسلوا السمن وهم حُرْم، ولا يدخلوا بيتاً من شعر ولا يستظلوا إن استظلوا إلا في بيوت من الأدم ما كانوا حرماً. وقالوا لا ينبغي لغير أهل الحرم أن يأكلوا من طعام جاءوا به من الحل إلى الحرم إذا جاءوا حجاجاً أو عماراً، ولا يطوفوا بالبيت إذا قدموا أول طوافهم إلا في ثياب الحمس فإن لم يجدوا شيئاً طافوا بالبيت عراة فإن تكرم منهم متكرم من رجل أو امرأة ولم يجد ثياب أحمس وطاف في ثيابه التي بها في الحل ألقاها إذا فرغ من طوافه ولم ينتفع بها ولم يمسه هو ولا أحدٌ غيره فكانت تسمى تلك الثياب (اللقى) فجاء الإسلام فأنزل الله ﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ ﴾ [البقرة: ١٩٩]. وأنزل تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴿ [الأعراف: ٣١]. وأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يُنادى سنة تسع من الهجرة ألا يحج من العام القادم مشرك ولا يطوف بالبيت عريان، وبنت قريش الكعبة قبل

البعثة بخمسة أعوام وشارك معهم النبي صلى
الله عليه وسلم في البناء، وقصروا في البناء حين
قصرت بهم النفقة فأخرجوا الحجر، ورفعوا
بأبها ليدخلوا من شاءوا ويمنعوا من شاءوا.
وكان عندهم السقاية والردفاعة فكانوا
يسقون الحجاج ويطعمونهم والحجاجة للبيت.



نور الرسالة يشع من مكة

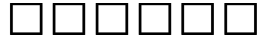
في الصحيحين (١) عن عائشة رضي الله عنها قالت: «أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصالحة، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح. ثم حُبب إليه الخلاء فكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه - وهو التعبد - الليالي ذوات العدد قبل أن يرجع إلى أهله ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى فجأه الحق وهو في غار حراء فجاءه الملك فقال له: اقرأ. قال: ما أنا بقارئ. قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت ما أنا بقارئ. فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾. فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده، حتى دخل على خديجة فقال: زملوني زملوني، فزملوه حتى

(١) رواه البخاري برقم ٣ ومسلم برقم ١٦٠.

ذهب عنه الروع، ثم قال لخديجة أي خديجة مالي؟ فأخبرها الخبر: لقد خشيت على نفسي. فقالت له خديجة: كلا، أبشر فوالله لا يزيك الله أبداً. إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق. ثم انطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد وهو ابن عمها. وكان امرءاً تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العربي، فكتب من الإنجيل بالعربية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت خديجة: أي عم اسمع من ابن أخيك. فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس الأكبر الذي أنزل على موسى. يا ليتني فيها جذع، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أوخرجي هم؟ قال ورقة: نعم، لم يأت رجل قط بما جئت به إلا عودي. وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً. ثم لم ينشب ورقة أن

توفي، وفتّر الوحي فترة».

وبعدها لقي النبي صلى الله عليه وسلم ما لقي من الإيذاء والمشقة حتى أذن الله له بالهجرة إلى المدينة، ووقف حين خرج من مكة وخاطب مكة فقال عليه الصلاة والسلام: «والله إنك لخير أرض وأحب أرض الله إلى الله ولو أني أخرجت منك ما خرجت».



اليوم تُعظم الكعبة

هو يوم الفتح الأعظم الذي أعز الله به دينه ورسوله وجنده وحرمه الأمين واستنقذ به بلده وبيته - الذي جعله هدى للعالمين - من أيدي الكافرين والمشركين.

وهو الفتح الذي استبشر به أهل السماء ودخل الناس في دين الله أفواجاً وأشرق به وجه الأرض ضياءً وابتهاجاً.

خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم بكتائب الإسلام وجنود الرحمن في سنة ثمان في رمضان (١) وتجهز الناس وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها» خرج في عشرة آلاف من المسلمين، وصام النبي عليه الصلاة والسلام حتى إذا بلغ الكديد أفطر وأفطر الناس معه، ولقيه عمه العباس في الطريق مهاجراً وابن عمه أبو سفيان بن الحارث بن عبدالمطلب وعبدالله بن أبي أمية ابن عمته وصهره أخو أم سلمة رضي الله عنهم.

(١) انظر زاد المعاد لابن القيم.

ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزل بمر الظهران عشاءً، فأمر أصحابه فأوقدوا أكثر من عشرة آلاف نار، ولم يبلغ قريشاً مسيره وهم مغتمون لما يخافون من غزوه إياهم. قال العباس: قلت وأصبح قريش، والله لئن دخل رسول الله مكة عنوة قبل أن يأتوه فيستأمنوه إنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر. قال فركبت بغلة رسول الله فخرجت حتى أتيت الأراك، فقلت لعلي أجد بعض الحطابة أو صاحب لبن أو ذا حاجة يأتي مكة فيخبرهم بمكان رسول الله فيأتوا إليه فيستأمنوه قبل أن يدخل عليهم عنوة. قال فوالله إني لأسير عليها إذ سمعت كلام أبي سفيان وبديل بن ورقاء وهما يتراجعان، وأبو سفيان يقول: ما رأيت كالليلة نيراناً قط ولا عسكرياً، قال: يقول بديل: هذه والله خزاعة حمشتها الحرب، فيقول أبو سفيان: خزاعة أقل وأذل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها قال فعرفت صوته فقلت: يا أيا حنظلة. فعرف صوتي فقال: أبا الفضل؟ قلت نعم. قال مالك فذاك أبي وأمي؟ قال

قلت: هذا رسول الله في الناس، وأصبح قريش والله. قال أبو سفيان: فما الحيلة فداك أبي وأمي؟ قال قلت: والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك، فاركب في عجز هذه البغلة حتى آتي بك رسول الله فأستأمنه لك. فركب خلفي، ورجع صاحبا. قال فجئت به، فكلما مررنا بنار من نيران المسلمين قالوا: من هذا؟ فإذا رأوا بغلة رسول الله وأنا عليها قالوا: عم رسول الله على بغلة رسول الله. حتى مررت بنار عمر بن الخطاب فقال: من هذا؟ وقام إلي، فلما رأى أبا سفيان على عجز الدابة قال: أبو سفيان عدو الله؟ الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد. ثم خرج يشتد نحو رسول الله صلى الله عليه وسلم. فركضت البغلة فسبقته بما تسبق به الدابة البطيئة الرجل البطيء، واقتحمت عن البغلة فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذت برأسه وقلت: والله لا يناجيه الليلة أحد دوني. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اذهب به يا عباس إلى رحلك، فإذا أصبحت فاتني به.

فذهبت به إلى رحلي، فلما أصبحت غدوت به على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما رآه رسول الله قال: ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أن لا إله إلا الله؟ قال: بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، والله لقد ظننت أن لو كان مع الله غيره لقد أغنى عني شيئاً بعد. قال: ويحك يا أبا سفيان ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟ قال بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، أما هذه ففي النفس حتى الآن منها شيء. فقال له العباس: ويحك أسلم وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله قبل أن تضرب عنقك. فأسلم وتشهد شهادة الحق، فقال العباس: يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الفخر، فاجعل له شيئاً. قال نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن. وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم العباس أن يجلسه بمضيق من الوادي عند خطم الجبل تمر به جنود الله فيراها، ففعل، فمرت القبائل على

راياتها، كلما مرت قبيلة قال: يا عباس من هذه؟ فأقول سليم، فيقول مالي ولسليم ثم تمر القبيلة فيقول: يا عباس، من هؤلاء؟ فأقول: مزينة. فيقول: مالي ولمزينة حتى نفذت القبائل، ما تمر قبيلة إلا سألني عنها فأخبرته بهم قال مالي ولبني فلان. حتى مر به رسول الله صلى الله عليه وسلم في كتيبته الخضراء فيها المهاجرون والأنصار لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد، فقال: سبحان الله يا عباس، من هؤلاء؟ قال قلت هذا رسول الله في المهاجرين والأنصار، قال ما لأحد هؤلاء قبل ولا طاقة. ثم قال: والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أحيك عظيماً. قال قلت يا أبا سفيان إنها النبوة. قال فنعم إذن. قلت النجاء إلى قومك. وكانت راية الأنصار مع سعد بن عباد، فلما مر بأبي سفيان قال له اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الكعبة، اليوم أذل الله قريشاً. وفي رواية البخاري في الصحيح: فقال أبو سفيان: يا عباس حبذا يوم الذمار. يعني أن تكون له يد فيحامي قومه. وفي رواية البخاري:

راية النبي صلى الله عليه وسلم مع الزبير بن العوام، فلما مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأبي سفيان قال: ألم تعلم ما قال سعد بن عبادة؟ قال ما قال؟ قال: كذا وكذا. قال كذب سعد، ولكن هذا يوم يعظم الله فيه الكعبة ويوم تكسى فيه الكعبة قال فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تركز رايته بالحجون، وفي رواية ابن إسحاق: فقال عثمان وعبدالرحمن بن عوف: يا رسول الله ما نأمن أن يكون له في قريش صولة، فقال رسول الله × : بل اليوم يوم تعظم فيه الكعبة، اليوم أعز الله قريشاً. ثم أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى سعد فترع منه اللواء فدفعه إلى قيس ابنه، ورأى أن اللواء لم يخرج عن سعد إذ صار إلى ابنه، ومضى أبو سفيان حتى جاء قريشاً فصرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش، هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن. قالوا: قاتلك الله وما تغني عنا دارك؟ قال: ومن أغلق بابه فهو آمن، قال

فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد، وسار رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل مكة من أعلاها، وضربت هناك القبة. وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الزبير بن العوام على المهاجرين وخيلهم وأمره أن يدخل من كذا من أعلى مكة، وأمره أن يغرز رايته بالحجون ولا يبرح حتى يأتيه، وبعث خالد بن الوليد في قبائل قضاة وسليم وغيرهم وأمره أن يدخل من أسفل مكة وأن يغرز رايته عند أدنى البيوت، وبعث ابن عبادة في كتبية الأنصار في مقدمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمرهم أن يكفوا عن القتال ولا يقاتلوا إلا من قاتلهم، واندفع خالد بن الوليد حتى دخل من أسفل مكة وقد جمع بها بنو بكر وبنو الحارث بن عبد مناة وناس من هذيل ومن الأحابيش الذين استنصرت بهم قريش فقاتلوا خالداً فانهزموا، وقتل من بني بكر نحواً من عشرين رجلاً ومن هذيل ثلاثة أو أربعة حتى انتهى بهم القتال إلى الحزورة إلى باب المسجد حتى دخلوا الدور فارتفعت طائفة منهم على الجبال، وصاح أبو

سفان: من أغلق بابه وكف يده فهو آمن. قال ونظر رسول الله إلى البارقة، فقال: ما هذا وقد نهيت عن القتال؟ فقالوا: نظن أن خالداً قوتل وبدئ بالقتال فلم يكن له بد من أن يقاتلهم. ولمسلم عن أبي هريرة قال: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم على إحدى المجنبتين خالد بن الوليد، وعلى الأخرى الزبير، وبعث أبا عبيدة على الحسّر أي الذين لا سلاح معهم، فقال لي: يا أبا هريرة اهتف لي بالأنصار. فهتف فجاءوا فطافوا به فقال لهم أترون إلى أوباش قريش وأتباعهم. ثم قال بإحدى يديه على الأخرى احصدوهم حصداً حتى توافوني بالصفاء، فقال أبو هريرة فانطلقنا فما نشاء أن نقتل منهم أحداً إلا قتلناه. قال فجاء أبو سفيان فقال يا رسول الله أبيضت حضراء قريش لا قريش بعد اليوم، ثم قال: من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، فقال الأنصار بعضهم لبعض: أما الرجل فأدر كته رغبة في قريته ورأفة بعشيرته، قال أبو هريرة وجاء الوحي وكان إذا جاء لا يخفى علينا، فإذا جاء ليس أحد يرفع

طرفه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ينقضي الوحي. قال رسول الله: يا معشر الأنصار، قالوا: لبيك يا رسول الله، قال قلت أما الرجل فأدر كته رغبة في قريته قالوا: قد كان ذلك، قال: كلا إني عبد الله ورسوله، هاجرت إلى الله وإليك والمحيا محياكم والممات مماتكم. فأقبلوا بيبكون ويقولون: والله ما قلنا الذي قلنا إلا للضن بالله ورسوله. فقال رسول الله: فإن الله ورسوله يصدقانكم ويعذرانكم الحديث (١).

قالوا ولما انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ذي طوى وقف على راحلته معتجراً بشقة برد أحمر وعليه المغفر وهو يقرأ سورة الفتح ويرجع وإنه ليضع رأسه تواضعاً لله وشكراً له حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح، وخضوعاً لعظمته أن أحل له بلده ولم يحله لأحد بعده، حتى إن عثونه ليكاد يمس واسطة الرحل - والعثون اللحية - أو ما فضل منها بعد العارضين وكان رسول الله

(١) أخرجه مسلم ١٧٨٠.

صلى الله عليه وسلم قد عهد إلى أمرائه ألا يقاتلوا إلا من قاتلهم، إلا أنه عهد في نفر سماهم أمرهم بقتلهم وإن وجدوا تحت أستار الكعبة: الحويرث بن وعبدالله بن خطل وهبار بن الأسود ومقيس بن صبابه وعبدالله بن أبي سرح وعكرمة بن أبي جهل وقيتان لابن خطل كانتا تغنيان بهجاء رسول الله ومولاة لبعض بني المطلب اسمها سارة. فأما ابن خطل فقتله أبو برزة الأسلمي وهو متعلق بأستار الكعبة وقيل قتله الزبير، وأما الحويرث ومقيس وإحدى القينتين فقتلوا وكان مقيس قد أسلم ثم ارتد ولحق بالمشركين، وأما هبار بن الأسود فهو الذي عرض لزَيْنَب بنت رسول الله حين هاجرت حتى سقطت على صخرة فأسقطت جنينها ففر وأسلم وحسن إسلامه، واستؤمن رسول الله لسارة وإحدى القينتين فأمنهما فأسلمتا، وأما ابن أبي سرح فإنه أسلم فجاء به عثمان بن عفان فاستأمن له رسول الله فأمنه بعد أن أمسك رجاء أن يقوم إليه بعض الصحابة فيقتله، وكان قد أسلم قبل ذلك ثم

هاجر ثم ارتد ورجع إلى مكة، وأما عكرمة فاستأمنت له امرأته بعد أن هرب فقدم وأسلم وحسن إسلامه.

ثم نهض رسول الله صلى الله عليه وسلم والمهاجرون والأنصار بين يديه وخلفه وحوله حتى دخل المسجد، فأقبل إلى الحجر الأسود فاستلمه، ثم طاف بالبيت وفي يده قوس، وحول البيت وعليه ثلاثمائة وستون صنماً، فجعل يطعنهما في عيونها بالقوس ويقول «جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً، جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد» والأصنام تتساقط على وجوهها، وكانت مثبتة بالحديد والرصاص.

وكان طوافه على راحلته، ولم يكن محرماً يوماً فاقصر على الطواف بالبيت. ثم دعا بعثمان بن طلحة فأخذ منه مفتاح الكعبة فأمر بها ففتحت فدخلها وفيها الصور، ورأى صورة إبراهيم وإسماعيل يستقسمان بالأزلام، فقال: قاتلهم الله، والله ما استقسما بها قط. ورأى في الكعبة حمامة من عيدان فكسرهما بيده، وأمر

بالصور فمحيث، ثم أغلق عليه الباب وعلى أسامة وبلال وعثمان بن طلحة فاستقبل الجدار الذي يقابل الباب حتى إذا كان بينه وبينه قدر ثلاثة أذرع وقف وصلى هناك. وفي الترمذي عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أراد أن يدخل البيت وفيه الآلهة فأمر بها فأخرجت، فأخرجوا صورة إبراهيم وإسماعيل في أيديهما الأضلام فقال رسول الله: قاتلهم الله، أما والله لقد علموا أنهما لم يستقسما بها قط. فدخل البيت وكبر في نواحيه ولم يصل. ولمسلم عن ابن عباس أخبرني أسامة بن زيد أن النبي صلى الله عليه وسلم لما دخل البيت دعا في نواحيه كلها ولم يصل فيه حتى خرج، فلما خرج ركع في قبل البيت ركعتين.

وفي حديث ابن عمر عند مسلم قال بلال: جعل عمودين عن يساره وعموداً عن يمينه وثلاثة أعمدة وراءه وكان البيت يومئذ على ستة أعمدة ثم صلى، ثم دار في البيت وكبر في نواحيه ووحده الله، ثم فتح الباب وقريش قد ملأت المسجد صفوفاً ينظرون ماذا

يفعل، فأخذ بعضادتي الباب وهو تحته فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده، ألا كل مأثرة أو مال أو دم فهو تحت قدمي هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج، ألا وقتل الخطأ شبه العمد السوط والعصا ففيه الدية مغلظة. مائة من الإبل أربعون منها في بطونها أولادها. يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء، الناس من آدم وآدم من تراب.

ثم تلا هذه الآية ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ الآية.

ثم قال: يا معشر قريش، ما تظنون أني فاعل بكم؟ قالوا: خيراً أخ كريم وابن أخ كريم. قال: فياني أقول لكم كما قال يوسف لإخوته: **الَا تَثْرِبَ عَلَيَّكَمُ الْيَوْمَ يَعْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ** . اذهبوا فأنتم الطلقاء. ثم جلس في المسجد، فقام إليه علي ومفتاح الكعبة في يده فقال: يا رسول الله اجمع لنا

الحجاجة مع السقاية صلى الله عليك. وفي رواية أن الذي قال ذلك العباس بن عبدالمطلب. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أين عثمان بن طلحة؟ فدعى له، فقال: هاك مفتاحك يا عثمان، اليوم يوم بر ووفاء. وفي رواية: وكان النبي صلى الله عليه وسلم يريد أن يدفعه إلى العباس فأنزل الله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴾ الآية. وذكر ابن سعد في الطبقات عن عثمان بن طلحة قال: كنا نفتح الكعبة في الجاهلية يوم الاثنين والخميس، فأقبل النبي صلى الله عليه وسلم يريد أن يدخل الكعبة مع الناس فأغلقتة ونلت منه، فحلم عني ثم قال: يا عثمان لعلك ستري هذا المفتاح يوما بيدي أضعه حيث شئت. فقلت: لقد هلكت قريش يومئذ وذلت. فقال: بل عمرت وعزت يومئذ. ودخل الكعبة فوقعت كلمته مني موقعا ظننت أن الأمر سيصير إلى ما قال، فلما كان يوم الفتح قال: يا عثمان اتني بالمفتاح، فأتيته به فأخذه ثم دفعه إلي وقال: خذوها تالدة خالدة لا يترعها منكم إلا ظالم. يا عثمان إن الله استأمنكم على بيته فكلوا مما يصل إليكم

من هذا البيت بالمعروف. قال: فلما وليت ناداني فقال: ألم يكن الذي قلتُ لك؟ قال فذكرت قوله لي قبل الهجرة فقلت: بل أشهد أنك رسول الله. وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بلالاً أن يصعد فيؤذن على الكعبة، وأبو سفيان بن حرب وعتاب بن أسيد والحارث بن هشام وأشرف قريش جلوس بفناء الكعبة، فقال عتاب: لقد أكرم الله أسيداً ألا يكون سمع هذا فيسمع منه ما يغيظه. فقال الحارث: أما والله لو أعلم أنه حق لا تبعته. فقال أبو سفيان: والله لا أقول شيئاً، ولو تكلمت لأخبرت عني هذه الحصباء. فخرج عليهم النبي صلى الله عليه وسلم فقال لهم: قد علمت الذي قلتُم، ثم ذكر لهم ذلك. فقال الحارث وعتاب: نشهد أنك رسول الله، والله ما اطلع على هذا أحد معنا فنقول أخبرك.

وفي البخاري عن أسامة بن زيد أنه قال زمن الفتح: يا رسول الله أين نزل غداً؟ قال النبي صلى الله عليه وسلم: وهل ترك لنا عقيل من متزل؟ وفي رواية وهل ترك لنا عقيل من رباع أو دور؟ وكان عقيل ورث أبا طالب هو

وطالب ولم يرث جعفر ولا علي شيء لأنهما كانا مسلمين وكان عقيل وطالب كافرين، وفي رواية قال عليه الصلاة والسلام: منزلنا إن شاء الله إذا فتح الله الخيف حيث تقاسموا علي الكفر، يعني به المحصب، وذلك أن قريشاً وكنانة تحالفت على بني هاشم وبني المطلب ألا يناكحوهم ولا يبائعوهم حتى يسلموا إليهم النبي صلى الله عليه وسلم .

ثم دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم دار أم هانئ بنت أبي طالب فاغتسل وصلى ثمان ركعات في بيتها وكانت ضحى كما في الصحيحين من حديث أم هانئ. وفي رواية لم أره صلى صلاة قط أخف منها غير أنه أتم الركوع والسجود. وأجارت أم هانئ حموين لها فقال النبي صلى الله عليه وسلم : قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ وقد كان أخوها علي بن أبي طالب أراد أن يقتلها فأغلقت باب بيتها وذهبت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال لها ذلك.

فلما كان الغد من يوم الفتح قام رسول الله صلى الله عليه وسلم في الناس خطيباً فحمد

الله وأثنى عليه كما في البخاري عن أبي شريح العدوي أنه قال لعمر بن سعد وهو يبعث البعوث إلى مكة: ائذن لي أيها الأمير أحدثك قولاً قام به رسول الله الغد من يوم الفتح، سمعته أذناي ووعاه قلبي وأبصرته عيناي حين تكلم به، إنه حمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن الله حرمها ولم يجرمها الناس، لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دماً ولا يعضد بها شجراً، فإن أحد ترخص بقتال رسول الله فقولوا له: إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم، وإنما أذن لي فيها ساعة من نهار، وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس وليبلغ الشاهد الغائب (١) .



(١) انظر مختصر السيرة للشيخ عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب.

بشرى لقاصد أم القرى

عن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال:
كنت جالسا مع النبي صلى الله عليه وسلم في
مسجد منى، فأتاه رجل من الأنصار ورجل من
ثقيف، فسلما، ثم قالا: يا رسول الله جئنا
نسألك. فقال: «إن شئتما أخبرتكما بما جئتما
تسألاني عنه فعلتُ، وإن شئتما أن أمسك
وتسألاني فعلتُ».

فقالا: أخبرنا يا رسول الله!

فقال الثقيفي للأنصاري: سل. فقال:

أخبرني يا رسول الله! فقال:

«جئتي تسألني عن مخرجك من بيتك تؤمُّ

البيت الحرام وما لك فيه، وعن ركعتيك بعد

الطواف وما لك فيهما، وعن طوافك بين

الصفاء والمروة وما لك فيه، وعن وقوفك عشية

عرفة وما لك فيه، وعن رميك الجمار وما لك

فيه، وعن نحرِكَ وما لك فيه، مع الإفاضة».

فقال: والذي بعثك بالحق! لعن هذا

جئتُ أسألك. قال:

«فإنك إذا خرجتَ من بيتك تؤمُّ البيت

الحرام؛ لا تضعُ ناقُتُك خُفًّا، ولا ترفعه؛ إلا
 كتبَ اللهُ لك به حسنة، ومحا عنك خطيئة.
 وأما ركعتاك بعد الطواف؛ كعتق رقبة
 من بني إسماعيل.

وأما طوافك بالصفاء والمروة؛ كعتق
 سبعين رقبة.

وأما وقوفك عشيةَ عرفة؛ فإن الله يهبط
 إلى سماء الدنيا فيباهي بكم الملائكة يقول:
 عبادي جاؤني شُعثًا من كل فجٍ عميقٍ يرجون
 رحمتي، فلو كانت ذنوبُكم كعدد الرمل، أو
 كقطر المطر، أو كزبد البحر؛ لغفرتها، أفيضوا
 عبادي! مغفورًا لكم، ولمن شفَعتم له.

وأما رميك الجمار؛ فلك بكلِّ حصاةٍ
 رميتها تكفيرٌ كبيرٌ من الموبقات.

وأما نحرُك؛ فمدخورٌ لك عند ربك.

وأما حلاقُك رأسك؛ فلك بكلِّ شعرةٍ
 حلقتها حسنةٌ، وتمحى عنك بها خطيئةٌ.

وأما طوافك بالبيت بعد ذلك؛ فإنك
 تطوفُ ولا ذنبَ لك يأتي مَلَكٌ حتى يضعَ يديه
 بين كتفيك فيقول: اعمل فيما تُستقبل؛ فقد

غُفِرَ لَكَ مَا مَضَى» (١).

وفي الحديث الآخر: جاء رجل من الأنصار إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله، كلمات أسأل عنهن فقال: «اجلس».

وجاء رجلٌ من ثقيف، فقال: يا رسول الله! كلماتُ أسألُ عنهن. فقال صلى الله عليه وسلم: «سبقك الأنصاري».

فقال الأنصاري: إنه رجلٌ غريبٌ، وإن للغريب حقاً، فابدأ به. فأقبل على الثقيفي فقال:

«فإن شئت أنبأتك عما كنتَ تسألني عنه، وإن شئتَ تسألني وأخبرك؟».

فقال: يا رسول الله! بل أجبني عما كنتُ أسألك. قال:

«جئتُ تسألني عن الركوع والسجود والصلاة والصوم».

فقال: والذي بعثك بالحق ما أخطأت مما كان في نفسي شيئاً. قال:

(١) رواه الطبراني وحسنه الألباني.

«فإذا ركعت فضع راحتيك على ركبتيك، ثم فرِّج أصابعك. ثم اسكن حتى يأخذ كل عضو مأخذه، وإذا سجدت فمكِّنْ جبهتك، ولا تنقر نقراً، وصلِّ أول النهار وآخره».

فقال: يا نبي الله! فإن أنا صلَّيت بينهما؟

قال:

«فأنت إذا وصلِّ. وصمَّ من كلِّ شهر ثلاث عشرة، وأربع عشرة، وخمس عشرة».

فقام الثقفى. ثم أقبل على الأنصارى،

فقال:

«إن شئت أخبرتك عما جئت تسألني،

وإن شئت تسألني وأخبرك؟». فقال: لا يا نبي

الله! أخبرني بما جئت أسألك. قال:

«جئت تسألني عن الحاجِّ ما له حين

يخرج من بيته؟ وما له حين يقوم بعرفات؟

وما له حين يرمي الجمار؟ وما له حين

يخلق رأسه؟ وما له حين يقضي آخر طوافٍ

بالبيت؟».

فقال: يا نبي الله! والذي بعثك بالحق ما

أخطأت مما كان في نفسي شيئاً. قال:

«فإن له حين يخرج من بيته أن راحلته لا تخطو خطوة؛ إلا كتب الله له بها حسنة، أو حط عنه بها خطيئة، فإذا وقف بـ (عرفة) فإن الله عز وجل يتزل إلى سماء الدنيا فيقول: انظروا إلى عبادي شعثاً غبراً، اشهدوا أنني قد غفرت لهم ذنوبهم، وإن كانت عدد قطر السماء ورمل عالج، وإذا رمى الجمار لا يدري أحدٌ ما له حتى يوفاه يوم القيامة، وإذا حلق رأسه، فله بكل شعرة سقطت من رأسه نور يوم القيامة، وإذا قضى آخر طوافٍ بالبيت؛ خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه» (١) .

(١) رواه البزار والطبراني، وابن حبان، وصححه العلامة الألباني.

بركة مكة

هذه البلدة المباركة إنما جعل الله البركة فيها لما فيها من البقاع المباركة، فالبيت العتيق وزمزم والحجر الأسود، قال صلى الله عليه وسلم: «اللهم إن إبراهيم عبدك و خليلك دعاك لأهل مكة بالبركة ..» [الحديث رواه الطبراني].

والبركة لها معنيان أحدهما النمو والزيادة وثانيهما البقاء والدوام، فهي مباركة بجميع المعاني فإن الطاعات يزداد ثوابها ويتضاعف، قال علي - رضي الله عنه - : «هو أول بيت خص بالبركة» [رواه الحاكم وابن جرير].

فتطلب البركة بما شرع الله من المناسك والأعمال الصالحات دون غيرها ويبقى المسلم مقتنياً آثار النبي صلى الله عليه وسلم كما قال عمر - رضي الله عنه - لما أراد تقبيل الحجر الأسود: «إني لأعلم إنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أني رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يقبلك ما قبلتك»

[متفق عليه].

فالمسلم لا يقبل ولا يمسخ ولا يستلم إلا ما شرعه رسول الله صلى الله عليه وسلم .
ولذلك قال ابن عمر رضي الله عنهما:
«لم أر النبي صلى الله عليه وسلم يستلم من البيت إلا الركنين اليمانيين» [متفق عليه].

ولا يلتزم إلا الملتزم فقط وهو ما بين الحجر الأسود والباب وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه التزم الملتزم وورد عن الصحابة أنهم كانوا يفعلونه، أما ما سوى ذلك من جدران الكعبة والمسجد الحرام وأعمدته فلا يشرع تقبيلها ولا التمسح بها وكذلك الصفا والمروة المشروع السعي بينهما فقط.

وكذا المشاعر منى ومزدلفة وعرفة ليس فيها موضع تشرع زيارته والتمسح به والصلاة عنده وما يفعله بعض القادمين إلى مكة من صعود الجبل (١) الذي في عرفة والصلاة فيه فذلك من البدع والرسول صلى الله عليه وسلم لم يصعد الجبل وإنما وقف عند الصخرات في أسفل الجبل وقال: «وقفت هاهنا وعرفة كلها

(١) جبل الآل على وزن هلال أما تسميته بجبل الرحمة فلم ترد.

موقف».

وما يفعله بعض القاصدين إلى مكة من زيارة جبل النور وغار حراء والصعود على الجبل ودخول الغار فغير مشروع وليس فيه بركة ولم يفعله الرسول صلى الله عليه وسلم بعد البعثة وإنما كان يتردد عليه في الجاهلية حتى نزل الوحي عليه فيه، ومثله جبل ثور والصعود عليه والصلاة في الغار.

ونقل الأحجار منهما واعتقاد أن فيها بركة وهذا من أفعال الجاهلية.

وما يعتقد بعض الحجاج والقاصدين إلى مكة من الذهاب إلى بعض المواطن في مكة كالبيت الذي يُدعى أن النبي صلى الله عليه وسلم ولد فيه، أو إلى مقبرة المعلاة والتوسل بالقبول والدعاء عندها.

كل ذلك غير مشروع ومنها ما يكون بدعة ومنها ما هو وسيلة إلى الشرك، بل بعض القاصدين مكة يقع في الشرك وهو لا يشعر.

فيلطخ مكة بأوحال الشرك والله تعالى أوحى إلى خليله وابنه إسماعيل عليهما السلام بتطهير هذه البلدة من الشرك ووسائله.

﴿ وَعَهَدْنَا إِلَىٰ آبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ .

فالواجب على المسلم أن يحافظ على قدسية هذه البقاع ولا يدنسها بالشرك ووسائله وبالمبتدعات والمعاصي والسيئات فالسيئة في الحرم عظيمة والهـم بالسيئة يكتب عليه في مكة فلنحذر أشد الحذر من ذلك.

فإذا كانت مكة لا يشرع فيها تعظيم بقعة لم يرد الشرع في تعظيمها فغيرها من باب أولى من البقاع فلا تعظم ولا تعتقد البركة في بقعة لم يرد الدليل ببركته وتعظيمه.



فيه آيات بينات

١- الكعبة المشرفة: قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴾.

وقال تعالى: اجْعَلِ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِلنَّاسِ.

وقد جاء الفضل بالطواف بها، قال صلى الله عليه وسلم: «من طاف بالبيت لم يرفع قدماً ولم يضع قدماً إلا كتب الله له حسنة وخط عنه خطيئة وكتب له درجة» [رواه ابن خزيمة والحاكم وصححه الألباني].

وفي فضل الحجر الأسود، قال صلى الله عليه وسلم: «والله لبيعته الله يوم القيامة له عينان يبصر بهما ولسان ينطق به يشهد على من استلمه بحق» [رواه الترمذي وصححه الألباني].

وقال صلى الله عليه وسلم: «نزل الحجر الأسود من الجنة وهو أشد بياضاً من اللبن فسودته خطايا بني آدم» [رواه الترمذي وصححه الألباني]، وفي رواية البيهقي «حتى سودته خطايا أهل الشرك».

والركن اليماني، قال صلى الله عليه وسلم : «مسح الركن اليماني يحط الخطايا حطا» [رواه ابن حبان وصححه الألباني].

والملتزم، وهو ما بين الركن إلى الباب، فعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: طفت مع عبدالله بن عمرو فلما فرغنا من السبع ركعنا في دبر الكعبة فقلت: ألا نتعوذ بالله من النار، قال: أعوذ بالله من النار، قال: ثم مضى فاستلم الركن ثم قام بين الحجر والباب فألصق صدره ويديه وخصه إليه، ثم قال هكذا رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل ذلك. [رواه ابن ماجه وحسنه الألباني].

والحجر، وهو الحطيم، قال صلى الله عليه وسلم لعائشة : «صلي في الحجر إن أردت دخول البيت، فإنما هو قطعة من البيت ولكنك قومك استقصروه حين بنوا الكعبة فأخرجوه من البيت» [رواه أحمد والترمذي وهو صحيح].

٢- المقام: قال الله تعالى: ﴿ وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلِّينَ ﴾
قال صلى الله عليه وسلم : «الركن

والمقام ياقوتتان من يواقيت الجنة ولولا أن الله
طمس نورهما لأضاءتا ما بين المشرق والمغرب»
[رواه الترمذي وصححه الألباني].

قال أبو طالب في قصيدته اللامية
المشهورة:

وموطئ إبراهيم في الصخر رطبة

على قدميه

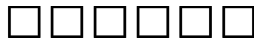
حافياً غير ناعل

٣- زمزم: قال صلى الله عليه وسلم :
«خير ماء على وجه الأرض ماء زمزم فيه طعام
من الطعم وشفاء من السقم .. الحديث».
[رواه الطبراني وحسنه الألباني].

وقال صلى الله عليه وسلم : «ماء زمزم
لما شرب له». [رواه أحمد وابن ماجه
وحسنه الألباني].

٤- الصفاء والمروة:

﴿ إِنَّ الصَّافَا وَالْمَرَوَةَ مِنْ شَعَابِرِ اللَّهِ فَمَنْ
حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا
وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾.



لبيك اللهم لبيك

شعار الحاج والمعتمر ممن قصد مكة لأداء هذه الشعيرة، ومعنى التلبية مأخوذة من ألب بالمكان أي أقام فيه، والملي يعلن إقامته على طاعة الله وتوحيده سبحانه وتعالى فهل كل ملب صادق في تلبيته.

هل هو مقيم على التوحيد ونبذ الشرك ووسائله وأسبابه ومقيم على السنة وترك البدعة مقيم على الطاعة وترك المعصية.

أم هو قولٌ باللسان والجوارح تخالف هذا القول تدممه، والأفعال تناقضه. إن من يعلن التلبية يعلن استجابته لأوامر الله تعالى وأوامر رسوله صلى الله عليه وسلم ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ .

فهل أنت مستجيب لله في جميع شؤونك؟ هل أجبت داعي الله بإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له؟ هل أجبت داعي الله في الصلاة والزكاة والصوم كما أجبته في الحج والعمرة.

حقاً إن التلبية شعار خاص للموحدين الصادقين الذين يعلنون أنهم لا يعبدون إلا الله

وحده لا شريك له .. لبيك لا شريك لك
.. لبيك ..

فلا تتعلق قلوبهم بغير الله ولا يسألون إلا
الله ولا يستغيثون إلا بالله ولا يندرون إلا لله
ولا يدعون إلا الله.

لا يتوسلون إلا بما شرع الله من التوسل
بأسمائه وصفاته أو بأعمالهم الصالحة أو بدعاء
حي قادر.

فلا يتوسلون بالقبور ولا بأصحابها ولا
بالأولياء ولا بالصالحين ..

توحيد خالص لله وحده لا شريك له.

التلبية شعار المؤمنين الصادقين الذين لا
يلبون إلا نداء الله ونداء رسوله صلى الله عليه
وسلم ولا يشدون الرحال إلا للمساجد
الثلاثة: المسجد الحرام والمسجد النبوي
والمسجد الأقصى، فلا يقصدون القبور
والمشاهد والأضرحة، وإنما يقصدون بأعمالهم
وجه الله عز وجل.



ملة أبيكم إبراهيم

- عليه الصلاة والسلام -

هذا البلد الحرام يذكرنا بأبي الأنبياء عليه الصلاة والسلام وبنائه للبيت وبدعوته لهذا البلد بالبركة، وبأمر الله بتأذينه بالحج ﴿ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ .

فمكة بجبالها ووديانها ومشاعرها تذكرنا به وهذه المناسك من إرث أبينا إبراهيم عليه السلام وهو إمام الحنفاء الموحدين رفض الشرك وتبرأ منه ودعا لعبادة الله وحده لا شريك له.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما رفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لما أتى إبراهيم خليل الله المناسك عرض له الشيطان عند جمرة العقبة، فرماه بسبع حصياتٍ حتى ساخ في الأرض، ثم عرض له عند الجمرة الثانية، فرماه بسبع حصياتٍ حتى ساخ في الأرض، ثم عرض له عند الجمرة الثالثة، فرماه بسبع حصياتٍ حتى ساخ في الأرض.»

قال ابن عباس: الشيطان ترجمون، وملة أبيكم إبراهيم تتبعون. [رواه ابن خزيمة وصححه الألباني].

هل استشعر كل من رمى الجمار أن يرفض الشيطان ووسائله ويحذر من وسائل إغوائه وطرق غوايته، فما فائدة أن يرمي الجمار وهو طائع للشيطان متبع له منقاد إليه في تصرفاته واهتماماته.

فيا من قصدت مكة، تخلص من رق الشيطان وعبوديته فأنت في بلد الله المباركة.

«فأولوا الألباب هم الذين يعتبرون من رمي الجمار ويأخذوا دروساً وعبراً ليعاملوا كل شيطان من شياطين الجن والإنس بالرحم المعنوي، فيعرفون ما عرف أبوهم إبراهيم عليه السلام فيرمون ويرجمون كل من يحاول صدهم عن أمر الله أو فتنهم عن دين الله وإشغالهم عن ذكر الله. فيرجموه ببغضه ورفض ما بيته» (١) .
وكل منسك في الحج والعمرة يُذكر

(١) انظر كتاب الحج للشيخ عبدالرحمن الدوسري رحمه الله.

المسلم فلا يعظم إلا ما عظمه الله من البيت الحرام والحجر الأسود ولا يعتقد البركة إلا ما جعله الله مباركاً كماء زمزم، ويستشعر ذل التعبد لله عز وجل والإخلاص له ودعاء الله، فيوم عرفة والوقوف بمزدلفة موطن من مواطن الدعاء وتوحيد الله وذكره وتكبيره وتهليله.

ويتذكر بذبح الهدي أن الذبح لا يكون إلا لله فلا يذبح على القبور ولا الأضرحة ولا للأولياء ولا للشياطين والجن بل يذبح لله وحده لا شريك له

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ
الْعَالَمِينَ ﴿٢٠٨﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ
الْمُسْلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾﴾.

ويتذكر حين ذبح هديه وأضحيته لما أمر إبراهيم عليه السلام بذبح ابنه وقلده كبده فامتثل وأطاع وبادر للعمل ونجح في هذا الامتحان.

فهنا يدرك المسلم أن يضحى بكل ما يملك وما يحب في سبيل الله، فلا تمنعه لذة النوم والفراش عن المبادرة لصلاة الفجر تفضيلاً

لمحبوب الله على محبوب نفسه ولا يمنعهُ الطمع في المادة عن ترك الغش والتطفيف وأخذ الربا بل يترك ذلك تفضيلاً لما يحبه الله، ولا يمنعهُ حب الشهوة والطمع باللذة عن غض البصر والتزام العفة بحفظ الفرج تفضيلاً وتقديماً لما يحبه الله. ولا يمنعهُ الشح وحب الحياة عن الإنفاق في سبيل الله والجهاد بالنفس، فعلى هذا يسير المسلم متبعاً لنبي الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام مقتدياً برسول الله محمد عليه أفضل الصلاة والسلام.



كيوم ولدته أمه

قصد مكة لأداء فريضة الحج مكفر
للسيئات ورافع للدرجات قال صلى الله عليه
وسلم: «من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع
كيوم ولدته أمه» [رواه البخاري ومسلم].

وقال صلى الله عليه وسلم: «الحج يهدم
ما كان قبله» [رواه ابن خزيمة وهو حسن]
فمن لبس ثياب الإحرام فقد خلع ثياب
العصيان وأقبل على طاعة مولاه وهو كالمولود
الصغير الذي محا الله عنه ذنبه فإياك أن تتلطخ
بالمعاصي والسيئات بعد هذه الرحلة الإيمانية،
فهذه الصفحة البيضاء النقية لا تسودها
بالمعاصي والسيئات، وهأنت تبدأ صفحة
جديدة في حياتك فلا تكتف بلقب الحاج
وتدع العمل الصالح بعد الحج، بل أن الحج
بداية الأعمال الصالحة، والله تعالى قال لنبيه
صلى الله عليه وسلم: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ
الْيَقِينُ﴾. واليقين هو الموت.

فبعد وداعك لمكة ورجوعك إلى بلدك
فأنت الشخص الذي ليس بالأمس خرج من

بلده، فقد تخرجت في مكة على الإخلاص والطاعة والتوحيد وتعلمت معالي الأخلاق والشمائل والصفات، وقضيت نسكك وأتممت أركان دينك، وأنت اليوم خير من أمس فأسأل الله القبول واتبع الحسنه بالحسنه ولا تتبع الحسنه بالسيئه واعلم أن من علامه القبول اتباع الحسنه بالحسنه، فأنت اليوم أقرب إلى الله مما قبل وهأنت مرتحل من بلد الله إلى بلادك، فلترحل بالتقوى وأشكر الله على نعمه الإعانة على أداء الفريضة فقد حرم غيرك فلم يصل إلى هذه البقاع الطاهرة ولم تكتحل عيناه برؤية مكة وبقاعها ومشاعرها.

فلنجدد الفرحة بطاعة ﴿ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾. ولا يلبس عليك الشيطان ويغريك بالألقاب وتظن أنك لست مكلفاً بالعمل، بل أنت اليوم أعلم وبعد الحج أقرب فلا يبعدك الشيطان عن ربك الكريم الرحيم.

لا يحج من العام القادم مشرك ولا يطوف بالبيت عريان

نداء وجهه المصطفى صلى الله عليه وسلم في السنة التاسعة من الهجرة في الحجة التي حج الناس بإمارة أبي بكر الصديق رضي الله عنه وأرسل علياً ليقرأ على الناس براءة التي فيها البراءة من المشركين، وفيها قول الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا ﴾ .

ومنذ ذلك الحين ومكة لا يدخلها إلا أهل الإيمان. ولكن أيها المسلم من المسلمين من يتمسك بشركيات ومبتدعات من دعاء الموتى وأصحاب القبور والتوسل بهم والاعتقاد بالأولياء أنهم ينفعون ويضرون.

فهل هذا قد تطهر من الشرك ووسائله وهو في بلد الله الحرام؟

وهل من تلبس بالمعاصي والسيئات قد طهر البيت من رجس المعاصي والذنوب.
وهل المرأة التي أظهرت مفاتنها ولم ترتد حجابها وتغطي وجهها لم تطف بالبيت

وأرجاء البلد الحرام عريانة «نساء كاسيات عاريات مائلات مميلات رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة لا يجدن ريح الجنة..» الحديث. هل التبرج والسفور وإظهار المفاتن إلا من العري الذي نهي عنه القرآن والسنة، فلتتق الله امرأة سعت بمفاتنها واختلطت بالرجال في بلد الله الحرام، وكان سببه فتنة لنفسها ولغيرها.

فلتحافظ المرأة على سترها وحجابها وتحفظ مكانة البيت العتيق، ولنحرص على المحافظة على قدسية مكة ولنطهرها من الشرك الأكبر وسائر البدع والمعاصي.



أمان الله لمكة

قال الله تعالى: ﴿أَوْلَمْ تُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا﴾
 ، وقال تعالى: ﴿أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا
 وَيَتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ .

بلد الله الأمين يأمن فيه الشجر والحجر
 والإنسان لا يسفك فيه دم ولا يروع أهله لا
 يحمل السلاح فيه، قال صلى الله عليه وسلم
 : «لا يحمل لأحدكم أن يحمل بمكة السلاح» .
 [رواه مسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله
 عنهما].

فمن سعى فيه بإفساد أهلكه الله أو من يُردِّ
 فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نُدِقُهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ . قَالَ
 عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما:
 «كنا نعد: لا والله، وبلى والله، من الإلحاد في
 الحرم» [رواه عبدالرزاق في المصنف].

ومن أخاف أهل مكة والحجاج والعمار
 فقد توعد بالعذاب الأليم.

فمكة هي بكة التي تُبْكُ الجبابرة والظلمة
 وأهل العدوان والإفساد، وقد أخبر الله عن
 أصحاب الفيل وكيف كانت نهايتهم بسبب

ظلمهم وعدوانهم، فهذا البيت محفوظ بحفظ الله
ومن أراد به سوء جعل الله ذلك سبباً في نهايته.
فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال:
«خطب النبي صلى الله عليه وسلم يوم الفتح
فقال إن الله عز وجل حبس عن مكة الفيل
وسلط عليها رسوله والمؤمنين ألا وإنها لم تحل
لأحد قبلي ولن تحل لأحد بعدي ألا وإنها
أحلت لي ساعة من النهار ألا وإنها ساعتي هذه
حرام..»

[رواه البخاري ومسلم].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ
هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾.

فهذا البلد آمناً بأمان الله لها.
فاللهم اجعل هذا البلد آمناً واحفظه من
كيد الكافرين وحقد الحاقدين.



وهذا هو المهدي الذي يخرج آخر الزمان.
وقد حفظ الله مكة، وقد قضت حكمة
أحكم الحاكمين بأن الدجال لا يدخلها في
آخر الزمان.

فعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم: «ليس من بلد إلا
سيطؤه الدجال، إلا مكة والمدينة، وليس نقب
من أنقابها إلا عليه الملائكة حافين، تحرسها،
فيتزل بالسبخة (١) ، فترجف المدينة بأهلها
ثلاث رجفات، يخرج إليه منها كل كافر
ومنافق». [رواه البخاري ومسلم].

عن أبي أمامة، عن النبي صلى الله عليه
وسلم: «وإنه لا يبقى شيء من الأرض إلا
وطئه وظهر عليه، إلا مكة والمدينة، لا يأتيهما
من نقب من أنقابهما إلا لقيته الملائكة
بالسيوف، صلته، حتى يتزل عند الضريب
الأحمر، عند منقطع السبخة، فترجف المدينة
بأهلها ثلاث رجفات، فلا يبقى فيها منافق ولا
منافقة إلا خرج إليه، فتنفي الخبيث منها، كما

(١) السبخة: الأرض الرملية.

ينفي الكير خبث الحديد، ويدعى ذلك اليوم الخلاص، قيل فأين العرب يومئذ؟ قال: هم يومئذ قليل..» [رواه ابن ماجة وابن خزيمة وهو صحيح].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ليحجن هذا البيت وليعتمرن بعد خروج يأجوج ومأجوج» [رواه البخاري]. وقد أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم أن المسيح عيسى بن مريم سيحج البيت بعد مقتل المسيح الدجال.

قال صلى الله عليه وسلم: «ليهلن ابن مريم بفتح الروحاء حاجاً أو معتمراً أو لثنيهما» [رواه مسلم].

وأخبر الرسول صلى الله عليه وسلم أن من علامات الساعة هدم الكعبة.

فعن عبدالله بن عمر أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة، ويسلبها حليها، ويجردها من كسوتها، ولكأني أنظر إليه أصيلاً

أفيدعا، يضرب بمسحاته ومعوله» [رواه أحمد وهو صحيح].

عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «كأني أنظر إليه أسود أفحج، ينقضها حجراً حجراً، يعني الكعبة» [رواه البخاري ومسلم].

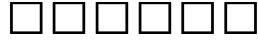
وعن أبي هريرة عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال: «يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة» [رواه مسلم] وسمي ذوي السويقتين لصغر ساقيه (١).

وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾.

وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «تخرج الدابة فتسم الناس على خراطيمهم ثم يعمرؤن فيكم حتى يشتري الرجل البعير فيقول ممن اشتريته فيقول: اشتريته من أحد المخطمين» [رواه أحمد وهو صحيح].

(١) انظر القيامة الصغرى للأشقر.

وقد ذكر في بعض الأخبار أن الدابة
تخرج من جبل أجياد في مكة.
وقد أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم :
«إن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً كما بدأ
وهو يأرز بين المسجدين كما تأرز الحية في
جحرها» [رواه مسلم: ١٤٦]، أي يرجع إلى
آخر الزمان إلى مكة والمدينة.



=====

ختاماً

يبقى قلب المسلم متعلقاً بتلك البقاع
المباركة، ولو نأت به الديار، وبعدت
المسافات، إلا أن القلب يحن لمهبط الوحي وإلى
تلك الرحبات وإلى موطن البركات والرحمات،
ويظل المسلم الصادق محافظاً على العهد
والميثاق، صادق الاستجابة لله وللرسول صلى
الله عليه وسلم وتبقى مكة محفوظة بحفظ الله
على مر العصور والدهور.

بمكة نورٌ يهزُّ الشعور ويُنطق كل فتى أخرس
يجاذب قلبي إليها الهوى ففي غيرها القلب لم يأنس
وبيت العتيق لنا قبلة نفيه بالأنف والأنفس

فاللهم احفظها من كل سوء ومكروه،
وزدها تشريفاً وتعظيماً ومهابةً وبراً وزد من
زارها وقصدها تشريفاً وتعظيماً وبراً.

والله أسألُ أن يجعل العمل خالصاً لوجهه
الكريم. وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى
آله وصحبه أجمعين.

والحمد لله رب العالمين.

وكتبه

أحمد بن صالح بن إبراهيم الطويان